# الغايات - ٦

**ولنا** أن نقول : إن كل شيء في الدنيا عقبة لآخر وغاية له . وله عقبة من كل شيء وغاية فيه على قاعدة أن النافع قد يضر والضار قد ينفع . فقد اقتضى النظام الكوني أن يكون الإنسان والحيوان والجماد على اتصال لا يستقيم كل بدونه لموضع حاجته من الآخر وافتقاره إليه حتى لا ينازع في صفة القيام بالنفس من ليس كمثله شيء وفي ذلك عبرة . وهنا يجمل أن تتدبر نعمة تسخير الله ما حول الإنسان للإنسان من كائنات نوع إرادته ورهن إشارته لا تبدي ولا تعيد ولا تعترض على ما يريد . فإن التبس عليك اجتماع تسخير الكائنات وكونها لك عقبات، فاعلم أن عقبة الكائن بك ومنك إذا حببت بالفضل وميزت بالعقل وقدمت بالسداد على إلمام الحيوان وطبيعة الجماد . ألم تر إلى البحر كيف سخر لك لتأكل منه لحماً طرياً ، وتستخرج منه حلية وحلياً ؟ ثم لا تنفذ إلى قيعانه ولا تنتفع بياقوته ومرجانه، ولا تطمع في بديد أونه من كيده إلا إذا صنعت الفلك مستمداً عقلاً منحك لتتفكر به كل ما سخر لك وتنال من كل شيء أملك .

والغايات مفسدات ما تفارقها إلا أن يتغلب طارقها ، منها ما هو نفسي ومنها ما هو حسي . كم تسللت هذه المفسدات على الغاية فتركت عامرها خرابا وماءها سرابا ، وصورت من العرى ثيابا ، ومن الخصب يبابا . رسولها إبليس وبضاعتها تلبيس ما أشبهها بالسوس ينخر في العظام وبالسيف يعيث بالأقلام . مكنت الهادم من أن يهدم وأباحت للفاجر أن يقدم . أهلها هم المفسدون عشاق الخلاف ، وجزاؤهم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف حيث يحاربون الله ورسوله ، ويقطعون على المجتمع مأموله . فأن أهل البيت لينعمون وعلى البر يتعاونون ولا يمنعون الماعون . يقولون ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لمالمناحقه . يتضافرون على الإصلاح ويتواقرون على الفلاح يسودهم الوئام ويمدوهم السلام يعصفون بكل عدو صياح كما تعصف بالأرواح هوج الرياح يحملون المصيب كل منصب لا يخطئ بل يعيب فاذا غضب عليهم شيخ المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، دبر وفيهم ، وأحكم خليهم ، ليشفي كامن البغضاء وليسمعهم قول أبي العلاء :

فهلا بنى الورهاء ما كان فيكمو ... رشيد ولا أنتم بأهل معالي

لم يشتبك مع الأتقياء ، ولم يعمد إلى الأولياء ، وإنما أفرخ في صدر المؤمن وغرد به ،

وأنهم أن المكر بدأني من مأربه ، وأنه إياس وعلى نبوغه تام القياس ، وأن ليس لأمام الجماعة دوابته حتى تحقق عليه رابته ، ولا هو فى حسنه حتى يمتثل بفعله . وما أسرع ما فويت يواعث الشر وانتشرت فى البحر والبر بتشجيع أحلاف الفتنة أعداء الفطنة من عباد البطون والراشين بالدون والنازعين إلى الحطام والعاكفين على الحرام . فاذا البيت المطمئن يتقاذف كرته رجال من الجن ، كان كالقطب تدور عليه الرحى ، وتحير الناس له إلى الهجى ، فاستعار مداره ، واضطرب ثقاله وانقطع حبل الطاعة وذهبت معالم الجماعة ، فتزعزعت أركانهم ولم تأمنهم يوم سبتهم حيتانهم ، وبعد الفلح المنضود والظل الممدود شربوا من الحميم شرب الهيم ونقدوا الهدوء فى معرسهم ؛ وأحسوا بالضيق فى متنفسهم « إن الله لا يغير ما بقوم حتى حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وها هوذا ما تلقى الجماعات والأمم من أصحاب الأغراض وذوى الأمراض مفسدى النايات ومعاكسى النهضات :

١ — متقلدى الأعباء ومظاهرى الأعداء . فسكينة كل أمة أصيبت من بنيها فى الثياب فلا يخلصون إذا كانوا عمالا ولا يتعلمون إذا كانوا جهالا ، تشغلهم المادة عن السمت والجادة .

٢ — وبقية كل أمة ينزع أهلها عن المكارم ، يتركون الفتنة تتمر فى الخطام ، وتستبقذ من المنام لا يتقى الله كبارها فى السر والعلن ولا يتجنبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

٣ — ومضطربة الحال كل أمة لا حظ فيها للأكياس والراسخين فى العلم من الناس يكثر فيها حلفاء الشيطان . والقاعدون معابط العدوان ومن لا يدرون ما الكتاب ولا الإيمان .

٤ — ومريضة كل أمة تروج فيها الأساطير وتموج عرصاتها بالمواخير . يجارى عالمها فى الحيرة ، ويدخل فى السكرة يحتقر جنسه ويضيء الناس ويحرق نفسه

٥ — وفى حالة النزع كل أمة تواكل أهلها ، وانتشر حبلها وأضحك فعلها وأغمد نصلها ، وأعوزها من يبذل ماله لاعزازها ونفسه لانقاذها

فقل لبنان بقول وكن مملكة ... على الكتائب يبنى الملك لا الكتب

وفى حفر مسقفة عابين الجنادل والكثيب كل أمة تأخذ من دينها ما يأخذ الميل من المكحلة ، والأنف من الزهرة الذابلة والهواء من الصخرة والماء من البشر فالكذب وسيلة النجاح فيها ، والصدق سبب العداوة بين أهليها . للباطل فيها جولان وللزور أرسان . تتفق جوانح مصلحيها على الرغبات ، وإشباع الشهوات والتظاهر بالدولة والتفاخر بالصولة يسألون ولا يسألون وينتقدون ولا ينتقدون ، وصمت الفضيلة على وجهها منهم نقاب أسود وأقامت الرذيلة بينهم المقام المرمد ، الهشام فيها مسالمون ، والكرام مخاصمون ، والقلوب متحاربة ، والنفوس متضاربة

والعفة في حرة الخجل ، والمروءة في غاية الوجل . يتوارث أمرها أعلام الطمع ، أنصار البدع استعبدت الدنيا طبيبها وشغل الزهو أريبها واحتقر السفهاء أديبها ، وأخذت من الظلم نصيبها فهي إلى القمة في الكرب والغمة ، لا تفرح النفس ، ولا تصل إليها الشمس

إي وربي إنه لحق ! أعتقد أن الله لا ينقذ هذا البلد من كؤوس البؤس إلا أن تستقيم السيئة وتصفو الخليقة وتقوم الأمور أمام عين الرائي والداني والناني على غير الخيال الموهوم ، والعمل المعدوم ، فلا تغمض الحقيقة عينها ولا يجهل الباحث مكانها ، ولا يكون القوام على الأعمال فريق فاسد وفريق طامع ، وفريق مشغول بأحراز الآلاف ، وفريق غير هياب ، نلاف ، ولا يكون المعلم القائم على تربية النشء همه أن يمر الشهر بالخير أو القهر ، يروقه تجميل هيئته عن تحسين طويته ، نشتكي منه الأخلاق التي يهجرها ولا يذكرها . يتمثل بأنه كما تعلم يعلم ، وما سمع يتكلم ، ناسيا أنه حجر الزاوية أو حاد الزاوية أو أولاج بن خراج و النبراس الوهاج أقسم بالشفق ، والليل وما وسق والقمر إذا اتسق ان المعلم في يده أن ترجع الأمة القهقرى وأن تهبط إلى الأسفل من الدرك فهو ملك رحيم أو شيطان رجيم وهو خداع ضلول وسيف مسلول ، إنه يفسد غاية الأمة منه حين يعلم أن من أبنائه الطلاب من سوف تبتسم له الليالي وتصاغ له الآلاء ، فلا يوصيه وصاة لقمان ولا يعلمه القسطاس والميزان ، ولا يأخذ عليه العهد بأن يكون رئيساً يراقب الله فيما كان هيناً أو نفيساً ، لا يحترم عاملا لجمال بزته ولا يهذبه من عامل اعتصامه بعزته . ولا يقرب من يتظاهر بطاعته أو يتودده ببعض قبيلته على الرغم من جريرته ولا من يحمل له متاعه ويمسح بيده ذراعه أو من يملأ بالمدح أسماعه ويوجه إليه أسماعه إلا إذا كحل عين العمل ، بأعدوه ولي ظلامه على فرقده ، وحافظ على الواجب محافظة الكرة على العين والمهموم على الأصفرين . ولا يبعد من لا يلجأ إلى حيائه ولا يحزن في سريرته ومن لا يهتز فرقا إذا شاهده ولا يقبل لستر عاره يده ومن يعلو بالحق صوته ويجلي فيه شوطه . متى أحسن في مهمته واستنزف ماني قريحته . ولا يضيع جزاؤه بين الله والناس هذا المعلم الذي يفهم أهل واديه والمجتمعين في ناديه أن الجزاء على الأعمال عين الصواب وأنه وسيلة لا يقتحمها واع إلا أسباب . فكل عمل لا مكافأة عليه لا إجادة فيه ولن يصبح في متناول اليد من يرقيه إذ الطور لا يداوي بالعور كما لا تلتئم النار بالشرر . والضرب على يد الناقم المظلوم والمستضعف المهضوم جديد مبتذل ، وطريقة غير منتحلة ، ليس وراءها غير التصنع في التأدية والمبالغة في التعمية والقناعة بهذا الضرب خرق ، وقبول التصنع في التأدية حمق

وكيف أروم منك جميل فعل ● إذا أيقنت أني غير جاز
وليس على الخفائق كل قول ● ولكن فيه أصناف المجاز

ولو خوف طلابه حكم التاريخ وهو إما أنعم وإما نعم موأقنعهم بأنه مرآة ترى فيها الآباد والآباد والذين لم يخلق مثلهم فى البلاد ، يخرج من القبور من بهر جده وسما مجده وكم نسب مقرف الآباء ورفعه من الأرض إلى السماء ، بحمد القوم غدوه ورواحه كلما قرأوا صحفه وألواحه : وكم سام الامن وأوجب اللعن على من أعمى الله بصائرهم وذم الدهر أوائلهم وأواخرهم لما رأيت من أبناء هذا العلم من لا ينصف نفسه إذا ولى من أمر الناس ضئيلا أو جليلا ومن رفع الفساد فى مرتع خصيب ووقت عصيب تحت سمعه وبصره ولما سمعت وقرأت أنى أوطانا تنمى عميدها حياً وتحتفره مع قوم حول جيم جنبا يتدبون قطائع عمره وينشدون كلما مروا بقصره

يا قصر جمع فيك الشؤم واللوم * متى يعش فى أركانك اليوم

ولما شاهدت الظروف العمياء واقبال الجبلاء والصدف العرجاء والحظ الذى عطف ومال وانعطف، تبعد المحسن مع إحسانه وتقرب المسيء على بهتانه وتخفى عمل الأبرار وتظهر الفجار بمظهر الأخيار . ولجاء عمر فطاف بالليل قرارا من الويل لا من مال فى الميل فلم يقف للمائمين على أثر ولا جاءه من الأنباء ماقبه مزدجر .

عبر الفتاح السيد

---

## تحيتى بعد عام

يا سطوراً على البياض تباها ... غير مغزى بها وحسن تناها
مر عام عليك فيه رويدا ... وارتوينا عذوبة لن تضاها
انت معنى الحياة فيك جهاد ... أنت بعث العقول بعد فناها
أمتعينا صحيفة العلم نشرا ... كم أعار الرياض نفح شذاها
لو قدرت مكسيت أعلى نضار ... وكتبت من العيون بماها

عبد الباقى أبو النجاه
مدرس بمدرسة السالمية الابتدائية